مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

هايدغر وسلطان العلة عند لايبنتز

مضر الصالح*

(تاريخ الإيداع 16 / 4 / 2014. قبل للنشر في 29 / 5 / 2014)

□ ملخّص □

يدور البحث حول سلطان أو سلطة العلة بصفتها تمثل وجهاً من وجوه الحداثة، التي يظهر فيها وجود الوجود في الفلسفة التي هي مرآة الوجود.

يبدأ البحث بتعريفات مبدأ العلة: لا شيء يوجد بلا علة أو بلا شيء يعلل وجوده، وتعريف مصطلحاته، بعد أن تم اكتشافه من قبل لايبنتز ورفعه الى مرتبة المبدأ الأعظم، ليكون أحد أشكال الظهور، وان يشرح الكيفية التي تمثل فيها فهم هايدغر لفلسفة لايبنتز، على أنه يمهد للحداثة ويؤصلها بمبدأ العلة الذي منه وعبره ينبثق الوجود، الذي يصبح مع العقل شيئاً واحداً يذهب بنا الى التيه أو الهاوية حيث يتحول الى المنطق، الى الكومبيوتر، الى قنبلة تهدد وجود الانسان الذي أنتجها خلسة عن نفسه.

إذا كان التدمير يطال الحضارة الغربية، فلا نستطيع نحن الهروب من هذا النزوع لأننا نعيش على ضفاف تلك الحضارة.

ولكن ألا يسعفنا تراثنا في الاقدام على قفزة نحو الأمام، تبدد حضور الغرب فينا عبر حضورنا في ما تأسس عليه هذا الحضور؟

الكلمات المفتاحية: جوهر، موناد، تعالي، تَبْديه، حدّ، إرادة، روحية.

* ماجستير – الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق– دمشق– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

Heidegger and Leibniz's Power of Reason

Modar Alsaleh*

(Received 16 / 4 / 2014. Accepted 29 / 5 / 2014)

□ ABSTRACT □

This article is about the hold or power of reason as an aspect of modernity, in which the existence of being is manifested in philosophy, which is considered the mirror of being. The research starts with definitions of the principle of reason: nothing exists without a reason, or without that which justifies its being and defines its terms. This was discovered by Leibniz and transcended to the rank of supreme principle to be a form of manifestation. It explains how Heidegger understood Leibniz's philosophy that paved the way for Modernity and grounded it on the principle of reason which emerges from and through being and becomes one thing with the mind, taking us to arrogance or the abyss, when it turns into logic, computer, and a bomb endangering the being of man who produces it in a self deceiving way. If the destruction reaches Western civilization, we cannot run away from this tendency because we live on the sides of this civilization. But can't our heritage help us to have a leap forward and nullify the presence of the West in us by our own presence in what grounds it?

Keywords: Substance, monad, Transcendence, Axiomatize, Term, Will, Spiritual.

***Master , Philosophy, Faculty of Humanities, Damascus University, Damascus, Syria**.

مقدمة:

إذا كان من المفترض أن يُستهل كل بحث بتعريف مصطلحاته، فنحن نعرف العلة بأنها إحدى بدائِه الفكر الأساسية أو المبادئ العقلانية أو بأنها المقول الأكثر استعمالاً، فالمعنى الحالي للكلمة يؤكد أنه لا شيء يوجد بلا علة أو بلا شيء يعلل وجوده، وان لكل ما هو واقعي علة لواقعيته، ولكل ما هو ممكن علة لإمكانه، ولكل ما هو ضروري علة لضرورته، وحتى لكل ما هو مُتصور علة لتصوره.

أهمية مبدأ العلة وإشكالاته:

سواء أعدنا صوغ المبدأ أو أعدنا سبكه أو بناءه أو تفسيره من جديد، فإننا سنظل نتعامل معه كشيء بديهي، قريب منا، مألوف جداً، فما أن يقول أحدنا قولاً حتى نطلب إليه فوراً أن يعلل قوله، حيث استقر في أذهاننا أن لكل تصرف علة، وذلك دون أن نسترسل في سرد تعريفات العلة وسرد أسماء المفكرين الكبار، فإن مجرد إمعان النظر، سوف يكشف أن مبدأ العلة ليس بديهياً، وليس سنّة عقلية وأننا لم ندرك أبعاده، وإننا لسنا على يقين من أن لكل شيء علة لأن هذا يفترض أن العلة لا بد أن تنتج معلولاً بكيفية واحدة، وهذا غير صحيح برأي لالاند.

ما العلة؟ بصرف النظر عن نقد تعريفات العلة التي قدمها الفلاسفة، لابد من التنويه بالعلل الأرسطية الأربع (الصورية والمادية والفاعلة والغائية) التي استخدمها ديكارت والديكارتيون بالمعنى عينه وأضافوا إليها العلاقة المنطقية لكي تنتج (منطقياً) حدثاً آخر[1]. كما لا بد من الإشارة الى ان هايدغر، الذي لا يشك في أن تكرار الوقائع الحاسمة في موروثنا الثقافي يؤدي الى تغيير مسار البحث الفلسفي بكل أبعاده، يرى أن المبادئ الأساسية للتفكير الميتافيزيقي الغربي، أي المبادئ المطلقة هي: مبدأ الذات ومبدأ عدم التناقض ومبدأ العلة التي يجب أن تتأسس عليها كل ميتافيزيقا... وبما ان طبيعة هذا التفكير تقوم على التصور وان التصور يقوم على الأولوية كأولوية الذات على الموضوع كان لا بد من جعل احد هذه المبادئ الثلاثة المبدأ الأول، ولأن موضوع بحثنا مبدأ العلة، فقد جعلناه المبدأ الأول[2].

والعلة لغة هي ما يتغير حكم غيره به، أما فلسفياً فالعلة هي ما يتوقف عليه وجود الشيء وهي نوعان: علة الماهية وعلة الوجود وعلة الماهية هي ما يلزم عنه شيء ما والعلة الوجودية هي ما يشارك في إيجاد الشيء فيقال (سلباً): لا شيء بدون علة، ويقال (إيجاباً): كل موجود له علة[3].

ونحن نقصد بالعلية، تلك العلاقة السببية بين أيّة ظواهر طبيعية أو اجتماعية أو أخلاقية، ولو كانت محلاً للتعارض بين الاتجاهات الفلسفية [4].

أما لايبنتز حين يشير إلى المعنى الحقيقي الأخص لكلمة علة، فإنه يقصد العلة الفاعلة، التي أصبح لها معانٍ عدة لدى المحدثين، فيسميها مالبرانش: علة فعلية أوفعالة مقابل العلة العارضة، التي تنفي وجود أي رابط داخلي بين المعلول والعلة ، وهي بنظر كانط مجرد آلية تؤكد التعاقب الثابت لأحداث لها علة. وحين نسأل ما هي علة العلة، فإن الإجابة تقول: إما أن يكون مبدأ العلة بلا علة، وهذا مخالف لتطبيقات مبدأ العلة نفسه، ولكل ما يتمتع بموجودية، وإما

---

[1] **عطيات أبو السعود. الحصاد الفلسفي للقرن العشرين (الاسكندرية: منشأة المعارف، 2002) 157.**

[2] **جمال محمد أحمد سليمان. مارتن هيدجر الوجود والموجود (بيروت: دار التنوير، 2009) 258.**

[3] **المرجع السابق، ص276، نقلاً عن مراد وهبة، المعجم الفلسفي**

[4] **فريال حسن خليفة. فكرة الألوهية في فلسفة باركلي (القاهرة: مكتبة الجندي، 1997) 124.**

أن تكون له علة مختلفة، لها صفة أو ميزة جعلتها كذلك، وربما كان الإشكال، في أننا لا نستطيع الوقوف هنا، لأن المبدأ نفسه، يجبرنا على تخطي ذلك الى السؤال عن علة علة العلة، والاستمرار في القول الى أن نقع في الدور الذي يمثل هاوية بلا قرار. ذلك هو شرط الإقامة في المنطقة التي يسميها لايبنتز منطقة الأحكام الأصيلة والمبادئ التي يتطلب فيها كل مقام مقالاً، والتمييز بين ما يحتاج اثباته الى برهان، وبين ما لا يحتاج الى ذلك، فمجرد امعان النظر في هذا المبدأ الأول والأعظم، تذهلنا كثرة الشكوك التي لا يرتاح لها الفكر. ولعل الصدفة هي التي تجعل المبدأ الأعظم على ذلك القدر من المفارقة، التي تجعله يفلت من ادراكنا في اللحظة التي نظن فيها أننا أدركناه، فهو يحثنا على الاندفاع دون أن يرهقنا، لهذا قيل: انه شيء يشبه الله في أساطير التكوين، الذي يتكئ عليها الباحثون، وهو في الوقت ذاته الذي يدفعهم الى الهاوية كشيء مبهم يعود على ذاته ويقلب تصوراتهم الذاتية.

والذاتية تمثُّل نزوعي، أو إرادة أو قدرة على انتاج شيء ما أو منحه كينونة؛ فكل جوهر فرد (موناد) إنما شأنه أن ينتج عالماً قائماً بذاته، وان يتمثل المونادات الاخرى [5].

ان نريد الشيء يعني ان ننتجه، ان نصنعه، ان نعطيه كينونة، أن نجعل منه مرآةً؛ تعكس العالم المتمثل تمثلاً يزيد أو ينقص، حسب يقظة الموناد وقدرته على توضيح غيره، والاهتداء الى مبدأ التعالي، والانفتاح على الأغيار، وهذا ما يراه بعض الباحثين سرَّ عظمة لايبنتز، ولكن هذه العظمة تحولت الى حدّ أو قيد، رغم إدراكه ظاهرة التعالي، بحدود المفهوم التقليدي للجوهر، وان لم يستطع ايضاح كيفية تمثّل العالم كمرآة تستقبله بصفته كائناً متعالياً يتخارج مع غيره.

ويبدو أن تاريخ الميتافيزيقا الحديثة، لم يعرف قبل لايبنتز، حقيقة النظر الى الكينونة بصفتها إدراكاً واشتهاء وتمثلاً وإرادة، فأن تريد شيئاً يعنى أن تصنعه[6] كما قلنا.

والمدلولات الأساسية التي لا بد ان تكون مترابطة في أية فلسفة منهجية، هي: الهوية والموضوع، المحمول والضرورة، الجواز والوجود، الطبيعة والمعرفة، وقد أفسح تفسير لايبنتز لهذه المدلولات مجالاً رحباً لـ (الإله الخيّر) الخالق لأفضل عالم ممكن [7].

إنه مبدأ يحتوي في ذاته، حساب شيء آخر، ان قضية العلة التي تعود على ذاتها، هي علة القضية التي تمنعنا من السير في خط مستقيم، وتجعلنا نرى أنفسنا في حركة دائرية.

. وفي المناقشة نقول: إذا كانت عبارة " أنا أفكر..." عند ديكارت، لا تنطبق الا على الانسان كذات، فإن لايبنتز قد عممها كمبدأ يشمل كل كائن بصفته ذاتاً، لأن حدّ (تعريف) الذات هو فعلها أي التمثل وكل كائن هو كائن حي أو ذات أو جوهر فرد أو موناد، يعلل ويبرر ويسوغ ويعقل الكائنات، أي يبحث عن علتها، ليقيم الحجة عليها، فكل ما يحيا فإنه يحيا وفقاً لعلل، وان كان يصعب علينا تقصيها، أي تعليلها وتعقلها، وبالمناسبة ليس لايبنتز هو من أحدث مسألة التعليل، أو التعقل، كما يقول هايدغر، فكل ما فعله هو أنه أيقظه من سباته، وأسمع صوته للناس، بل يمكن القول : أنه أعاد صوغ مبدأ العلة بما هو مبدأ يطلب تعليل الكائن وتعقله، من حيث هو كائن، فصار مبدأ العلة هو مبدأ العالم،

---

[5] انظر: هايدغر. نيتشه، م2. (نقلاً عن: نقد الحداثة. مرجع سابق، ص395).

[6] نفسه ونفس الصفحة

[7] ستيوارت هامبشر. عصر العقل. تر: ناظم الطحان. ط2.(اللاذقية: دار الحوار، 1986) 169. و

و محمد علي أبو ريان. تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة الحديثة، الجزء الرابع. (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1996) بخاصة ص150.

على التحقق، ويبدو أن اكتشاف المبدأ يعود أولاً وأخيراً الى عقلية القرن السابع عشر. وصار الكائن مشرعاً لعهد التقانة، فقد تضمن المبدأ تأويلاً انطولوجياً لمعنى الكائن، لمعنى الكينونة[8]. ولكن لايبنتز هو الذي ابتكر النظرية القائلة: " إن هذا العالم هو أفضل جميع العوالم، الممكنة وهي التي علق عليها برادلي ساخراً: وكل ما فيه هو بالضرورة شر" [9].

علاقة العلة بالمعلول:

تبدو علاقة العلة بالمعلول، على هيئة علاقة الكائن الفاعل بالفعل الذي أراد أن ينجزه على مسؤوليته، وجميع الكائنات الطبيعية تتحرك بإرادات ومشيئات، تستند الى علة أي " الى روح تفكَّرها وشاءَها "[10].

ولكن ما إن يتلاشى الاعتقاد بوجود مثل هذه العلة (الروح) حتى يتبدل تصور العلاقة بين العلة والمعلول، فلا يعود المعلول قادراً على الوجود ضمن ارادة العلة، بوصفها فكرة، فإن تصوره يتم كأنه موجود في طبيعة العلة،... ومن هنا يصير المعلول مماثلاً للعلة وإن ظل المعلول، متميزاً عن العلة، بصفته عنصر عمل عقلي آخر، بالنسبة الى العارف، وتلك هي المعادلة التي صاغها لايبنتز "العلة الممتلئة والمعلول التام" التي تمنع تحديد العلة والمعلول، تحديداً جزئياً كأنهما جزءان منفصلان بل بوصفهما متماثلين تماماً[11]. فـ "إن كل ما نراه، يظهر في مجلى (مظهر) جديد، كان له وجود سابق، في شكل آخر..."، وان كانت اللغة المحكية (غير الدقيقة) تطلق اسم معلول على اية مجموعة من الظواهر تمثل وحدة معينة بالنسبة الى حواسنا مع وجود جزء منها معلول (بدقة) لمجموعة اخرى من الظواهر تسمى علة فـ "ان علة واحدة، يمكنها إحداث عدة معلولات... وان معلولاً واحداً يمكن حدوثه عن علل عدة، مجتمعة، أو منفردة كلاً على حدة"[12]، ولكن لايبنتز، يميز أو على الأصح يفرق، بين الادراك الرمزي والادراك الحسي، فالشيء البسيط يمكن تصوره مباشرة اي تصوره حسياً، والمشكلة أن أغلب الأشياء مركبة، وقدرتنا محدودة، لهذا فنحن مضطرون لاستعمال الرموز.

فمبدأ العلة، ليس له علة كحكم يضعنا في مأزق: حكم بدون علة، ولا شيء بدون علة! هذا قول متناقض، برأي هايدغر، والمتناقض ممتنع الوجود، ونحن نجهد أنفسنا للوصول الى أية معرفة يقينية، لما هو موجود، وذلك بتجنب التناقضات، التي تفرض نفسها علينا، بالفرضيات التي تمدنا بها العلوم، فهذا النوع من الفكر يمثل اليوم شغف العلوم، والتناقضات تشكّل الحياة الداخلية لواقعية الواقع، وهي لا تحول دون وجود الموجود في الواقع، "فوجود التناقض لا يعني وجود المتناقض (هيجل)"، وحين نتمعن مبدأ عدم التناقض ونقول: ان مبدأ العلة، بدون علة، نردد فوراً: هذا متناقض، أي ممتنع الوجود، وممتنع التصور، وان كنا حين نتصور شيئاً ما فإننا نتصوره متمكناً، أي متموضعاً في مكان، وأن ما يكون ممتنعاً كتصور، لا يكون ممتنعاً على التفكير، لاسيما حين يكون التصور عاجزاً عن استيعاب الفكر، والإحاطة به.

---

[8] محمد الشيخ. نقد الحداثة في فكر هايدغر ، مرجع سابق، ص392 وما بعدها.

[9] برتراند رسل. تاريخ الفلسفة الغربية: الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة. تر: محمد فتحي الشنيطي. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977) ص138

[10] المرجع نفسه، ص 159

[11] المرجع نفسه والصفحة نفسها

[12] المرجع نفسه، ص 160

أما من يقول بأن مبدأ العلة له علة، فعليه أن يقول: ما هي؟ ما هي علة مبدأ العلة؟ وما هي طبيعتها؟

ونحن حين نقبل مبدأ، العلة نقبله بصفته مبدءاً سابقاً، بل بصفته المبدأ الأعظم بالنسبة لجميع القضايا وكأنه هو القضية ذاتها وأن ما يحكيه هذا المبدأ، هو علة وجود القضية، أي علة وجود المحكي عنه، بصفته علة القضية. لأننا، عملياً وببساطة، نقبل أو نسلم بالقضايا الأصلية، التي نسميها مبادئ أو مسلمات، ولكن هايدغر يرفض "ان نقر دون تبصر، بهذا الاسلوب السهل والمرتجل في معالجة المبادئ والمسلمات والقضايا الأصلية...، لأن المصطلحات الثلاثة: اليوناني، اللاتيني، والألماني (مثلاً)، تتكلم انطلاقاً من حقول تصورية مختلفة تماماً[13]، باختلاف اللغات التي جاءت منها.

ولئن سعى ديكارت الى بناء المعرفة الانسانية على أساس من الوضوح والتميز يكون خلواً من أية ريبة او شكّ، فإن لايبنتز قد أخذ على ديكارت انه لم يطبق أمر الوضوح والتميز على مسألة الوعي (الادراك، التمثل) التي ظلت مبهمة غامضة الى أن أوضحها لايبنتز، وجعلها أساس فكرة الحداثة، وربما كان هذا سبب اعتباره أهم وأعظم مفكري الحداثة في نظر هايدغر، بل اكثر من ذلك، فثمة من عدّ الميتافيزيقا الحديثة برمتها، نتاجاً لبعض فقرات كتاب المونادولوجيا التسعين[*]، وعَدّه مفكر الحاضر، فقد قال ان سبيلنا الوحيد الى المعرفة هو العالم الحسي، بما فيه من وقائع وجزئيات، تخضع لحواسنا الخمسة، أما عالمنا الداخلي من عواطف واتجاهات وميول فإن السبيل الى ادراكه هو قوة الاستبطان وهي ليست قوة فكرية ولكنها قوة حسية[14]، فضلاً عن استشرافه عصر الذرة وفهمه لجوهرية الجوهر، وايضاحه سلطة العلية كمبدأ أعلى. ونحن بدورنا، يمكن ان نعدّ كل عمل يهدف الى إجلاء جوهر فلسفة لايبنتز، عملاً فلسفياً. آخذين بعين الاعتبار، أن كل ما يميز تاريخ الفكر الغربي يختفي وراء الاختلاف في الدلالات.

من هنا نجد أن النقد الموجه الى الفكر المعاصر، الذي تم تأسيسه على المسلمات، لا يخلو من الادعاء الفارغ، لا سيما ذلك النقد الذي ينطلق من الايمان بإمكانية تطويع الفكر المعاصر، وإعادته الى الأصل اليوناني المزعوم، وهي محاولة تنم عن طفولية مؤسفة كما يقول هيدغر (ص24) أي أن تَبْديه أوبَدْهَنَة الفكر من أجل الوصول الى هدف معين ينطلق من التصور السائد حول البديهيات/ المسلمات ودورها.

وحين يعلق هايدغر، على اعطاء لايبنتز للمبدأ، تلك الصفات الرفيعة المستوى، مثل: مبدأ العلة العظيم، مبدأ العلة القوي... ، يقول: أننا لا ندرك معناها، الاّ إذا استطعنا إقامة حوار مع فكر لايبنتز، هذا إذا صح، أن المفكر الحق، هو من لم يكرر كلام سلفه وانما هو من يحاوره[15].

السبب والعلة:

وكان شلنغ أول من فتح حواراً ـ ميتافيزيقياً مع لايبنتز، استمر عبر مذهب نيتشه حول ارادة القوة، إلا أن قوة مبدأ العلة، لن تظهر لنا إلا إذا فكرنا بعمق بالصيغة التي تتردد في كتابات لايبنتز حول ذلك: " لا شيء موجود بدون علة، أو لا أثر (مُسَبَب) بدون سبب، لا معلول بدون علة، فهذه تسمى أيضاً سببية، لأن لايبنتز يماثل بينها عبر

---

[13] مارتن هيدغر. مبدأ العلة. تر: نظير جاهل. (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، 1991) ص23. وانظر أيضاً: ريتشارد شاخت. رواد الفلسفة الحديثة. تر: أحمد حمدي محمود. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997) ص61.

*** انظر الملحق، في نهاية البحث، ملخص المونادولوجيا.**

[14] علي عبد المعطي محمد. تيارات فلسفية حديثة (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1984) ص334.

[15] انظر، نقد الحداثة، مرجع سابق، ص391

استخدامه (أي) و(أو) معتبراً أن كل سبب هو نوع من العلة. ويترك العلاقة بين مبدأ العلة ومبدأ السبب مفتوحة[16]. وتعريف العلة يقتضي تعريف السبب الذي يحصل الشيء عنه لا به، بينما العلة هي ما يحصل به.

ولايبنتز يميز بين الصيغة الشائعة لمبدأ العلة، والصيغة الفلسفية أو البرهانية، لهذا المبدأ ويرى أن التعبير الدقيق عن مبدأ العلة/الأصل، يخفي تأويلاً لما تقوله الصيغة غير الدقيقة: لا شيء يوجد بدون علة، الذي قبلناه كمسلمة، دون تردد لأننا لا نملك ما يمنع ذلك، بل ربما كان هذا نابعاً من إيماننا بأن هذا المبدأ موجود منذ الأزل وان أصداءه تملأ المكان والزمان دون أن نبالي بها وإن كان مارتن هايدغر يرى أن "مبدأ العلة لم يكتشف إلا في القرن السابع عشر من قبل لايبنتز" واكتشاف المبدأ لا يعني أنه لم يكن موجوداً منذ القدم كمسلمة، كشيء بديهي، كما مرّ.

قد يكون القولان صادقين، ولكن أياً منهما لا يكفي لوحده لفهم الظهور المفاجئ لهذا المبدأ، بعد الغياب الطويل وبعد أن أعطاه لايبنتز طابع العظمة، كما انه لا يكفي لفهم الطابع الفلسفي لأقوال لايبنتز في مبدأ العلة وفي مكانته في نسق لايبنتز الفلسفي التي جعلت صيغته المعروفة: لا شيء يحصل بدون سبب، تشمل جميع الموجودات مما يدل على أن جعل الشيء موجوداً لا يعنى أنه بدون سبب، وهذه الصيغة الشائعة، هي صيغة خاطئة وغير دقيقة، برأي لايبنتز، الذي يرى أيضاً، أن الطبيعة والتاريخ هما جزء من الوجود الكلي لموجودية ما يسميه لايبنتز "الطبيعة" يقول:

"في الطبيعة علة غائية، يوجد على أساسها شيء ما بدلاً من لا شيء"[17]، أو كما يقول:

"في الطبيعة شيء ما يجعل الأشياء تميل الى ان توجد بدلاً من أن لا توجد، شيء لا بد أن نجده في الموجود، الواقعي أو في علته"، وحيث لابد من علة أولى لكل الموجودات أي لا بد من وجود موجود يعتبر حكماً بمثابة علة العلل، وهو ما اتفق على تسميته بكلمة واحدة: "الله" الموجود بكل حيثيات وجوده كعلة أولى، كقوة جبارة، وإن كنا لا نعرف ما هي هذه القوة الجبارة، التي يتصف بها هذا الموجود، هل هي الصيغة التي يدعونا لايبنتز الى التمسك بها، لأنها دقيقة وأصيلة ومختلفة، عن الصيغة الشائعة التي تفرض نفسها في أي مجال تحقق فيه ادعاءها كقوة جبارة كشيء ثابت.... إذن هذا الشيء الذي نتحدث عنه، هو وحده فقط الذي نستطيع القول عنه بيقين انه موجود، كعلة تؤصل الشيء بالنسبة لمن يتصورها أي العلة التي تفرض ان يكون لكل شيء علة في تصوراتنا، فالقوة الجبارة في مبدأ العلة، هي هذا النداء الذي يتطلب تقديم العلة، (إعطاءها) كعلة لكل شيء، وذلك دون ان يتحول المبدأ الى مبدأ معرفي وحسب، لأن ما تفرضه الفلسفة هو أن يظل المبدأ الأعظم، أعظماً في الفضاء المعرفي وفي الموضوعات المعرفية، أو القضايا التي يعرضها لايبنتز، ليصعد بها الى الأصل أو الأساس الذي تقوم عليه، لأن ما اصطلح على تسميته "الله" هو العلة الموجودة، كعلة اولى، كعلة عليا، فطبيعة الاشياء تشير الى علة تؤسس لوجود شيء ما بدلاً من لا شيء، وهي تسمى الله بصفتها علة اولى لكل موجود، ولكن يظل السؤال قائماً حول المصداقية لهذا الحكم الذي يصرّ على وجود علة لا بد منها لكي يوجد شيء ما بدلاً من لا شيء، فعلى هذا الاساس يستعيد لايبنتز القضية من جديد هكذا : "ها هنا في طبيعة الأشياء علة تجعل شيئاً ما يوجد بدلاً من لا شيء" (ص33) ويضيف: " هذا ما يستتبعه المبدأ العظيم الذي يقول بأن لا شيء يحصل للوجود بدون علة" (ص33).

ونحن لو مددنا هذه الأقوال الى حدودها القصوى لوجدنا أنها تقول : إن الله لا يوجد إلا في حدود مصداقية مبدأ العلة، وعلينا هنا أن نحدد درجة الصدق!

---

[16] انظر، هايدغر، مبدأ العلة، مرجع سابق ص25

[17] هايدغر، مبدأ العلة، مرجع سابق ص31 ومابعدها.

إذا كان مبدأ العلة يتمتع بتلك القوة العظيمة، فلا بد أن تمتلك تلك القوة فعالية ما، أي الفعالية التي يشير اليها لايبنتز في إحدى مقالاته بالقول : ان لكل فعاليه علة، وان العلة هي الله، مما يعني ان مبدأ العلة لا يوجد، وإن وجد لا يفعل، الا بوجود الله، علة العلل.

يزعم هايدغر ان أحداً منا لا يستطيع فهم القضايا التي طرحها لايبنتز بعمق، وان ما ينبغي فهمه الآن، هو ان مبدأ العلة يحكم كل شيء، إذ يتطلب الذهن المعلل وفق الصيغة الدقيقة للمبدأ، أن يكون {أن ينوجد} كل شيء كنتيجة أو بواسطة اتباع صريح لنداء الذهن المعلل (ص34) وإذا لم يكن كل شيء قائماً على المبدأ، فلا بد أن يكون قائماً على ما يحكيه المبدأ، فإن ما يحكى في المبدأ هو هذا النداء الموجه الى العلة لكي تؤدي كل ما يقال حول التأكيدات والإلزامات. والسؤال الذي يراودنا هنا هو : هل يمكن سماع النداء الداعي لاداء العلة؟

البعض يقول : لقد مللنا سماع هذا النداء منذ زمن بعيد، والبعض الآخر يكاد يسمع أو لا يسمع البتة، وهذا ما يدفع العقل الى الدوار، والواقع اننا نسمع اصداء النداء الملح الذي يدعو لاداء (تقديم) العلة، ولكننا لا نجيد الإصغاء، ولا ندرك اللغة الخاصة التي يتكلم بها النداء الذي يريد ان تؤدى العلة، أو لنقُل: اننا لا نملك الأجهزة اللازمة للقياس، كتلك التي تقيس درجة الاشعاعات النووية مثلاً، ولو وجد مثل هذا الجهاز لأدركنا أن مبدأ العلة العظيم، الجبار يمارس سلطانه علينا برضانا منذ أمد بعيد، يمارس سطوته القاهرة، بصورة لا فكاك منها بل يمكن القول : أننا نمتلك جهازاً بديلاً لهذا ولكننا نفتقد القدرة على استيعابه، فما سر هذه الغرابة التي تختفي وراء التسمية؟ هذا سؤال مشروع، والتساؤل العلمي يظل متحفزاً دائماً لإلغاء التناقضات التي تواجهه، ولكن عبر ما تحرزه من تقدم يتيح استيعابها في وحدة قادرة على حملها بإعطائها علة ما، والأسئلة التي تهدف الى تخطي التناقضات ملزمة دائماً أو محكومة بإلحاح بالدعوة الى ان تؤدي العلة/الأصل، الدور المطلوب.

يبدو ان ما يدفع الى إلغاء التناقضات الناجمة أصلاً عن كثرة النظريات (المتناقضة) وحتى الوقائع (المتعارضة)، هو النداء الموجه لاداء العلة وهو نداء مغاير للعلم، فهو بالنسبة الى العلم يمثل الفضاء الذي يجول فيه تصورها، كما يسبح السمك في الماء، كما يرتفع الطير في الهواء والعلم يستجيب لنداء العلة، دون أي شرط، وذلك هو الجانب الذي يخص العلم. فالعلم يستجيب للنداء ولكنه لا يفكر فيه بعمق، لأنه لا يسمعه بشكل دقيق، والمؤكد أن هذا العصر، محكوم بسلطة نداء العلة، القوي، الجبار، وما تصل اليه الدراسات في هذا المجال هو أن المعاصر لا يكون عصرياً إلا لكونه محكوماً بكليته بهذا النداء الذي يحض على تأدية العلة.

فقد وجد لايبنتز في مبدأ العلة : " لا شيء يوجد بدون علة" صيغة تعبر بدقة عن نداء يقتضي وجود أو أداء هذه العلة ذات الطابع الدقيق الذي ظهر في فلسفة لايبنتز (وإن لم يكن مكتملاً بعد)، ظهر في مقالته التي ارسلها الى أكاديمية العلوم الفرنسية (1671) حول نظرية الحركة المجردة المرتبطة بهذا المبدأ المشهور. الذي يقول: " لا يوجد شيء دون ان يكون لوجوده علة كافية ممكنة الأداء"[18].

أي ان هذه العلة التي تقتضي أن تُعطى أو تُؤدى تقتضي أيضاً أن تكون كافية تماماً (بصفتها علة) لضمان تماسك الموضوع لأن الكفاية شرط التماسك الكامل الذي يعني – بنظر لايبنتز– نوعاً من التوحد، الذي تؤمنه وتكمله الحيثيات التي تجعل الموضوع صامداً قوياً، يحقق وحدته الكاملة باكتمال علله وشروطه، كما لا بد أن تكون العلة كافية بالقدر الذي يقتضيه كمال الموضوع الذي لا تنفك عنه وكأنها علة مخصوصة له، اشتهر لايبنتز باكتشافها وكانت سبباً في نسبة ماسمي "الميتافيزيقا الحديثة" بمعنى الفكر الذي ما يزال الناس يشعرون به بعيداً عن الإشارة الى

[18] هايدغر، مارتن، مبدأ العلة، مرجع سابق ص38-39

فلسفة أصبحت من الماضي أو من التاريخ، فلسفة تؤكد حضور شيء موجود، يمكن أن نلتقيه، بل ان فكر لايبنتز يطبع بطابعه الخاص، ما يسمى عادة بـ "ميتافيزيقا العصر الحديث" أي العصر النووي الذي يخضع لسلطان العلة الكافية ويتحقق عبر مصطلحات الذرة والطاقة النووية، التي حلت محل الموضوعات/الأشياء، الأمر الذي لم يرتق الى مرحلة النضج وان كان في مرحلة التطور الأقصى التي يمكنها تعليل وجود كل موجود وتجعلنا ندرك أننا نوجد في مجال يقع تحت سيطرة مبدأ العلة أو في منطقة يخاطبنا منها مبدأ العلة، وليس في مقدور تصوراتنا العلمية والتقنية اختراق هذا المجال، أو تلك المنطقة، منطقة المبدأ العظيم، مبدأ العلة، لندرك كل ما فيها، ويبقى السؤال :

ما الذي يجعل ظهور مبدأ العلة، وبالتالي ظهور الوجود الذي ينتجه هذا المبدأ، في عصر معين دون غيره؟ وربما يظل هذا السؤال مفتوحاً، فإن الصيغة أو صيغ المبدأ العظيم التي تبدو لنا بنفس القدر من الأهمية تكاد تُفقد المبدأ شفافيته وعينيته او امكان معاينته أو تأويله بالقول (حسب لايبنتز): لا توجد أية حقيقة أو أية قضية صادقة دون علة ما ضرورية، وهنا يبحث فكرنا التصوري في كل مكان وفي كل اتجاه عن تلك العلة الضرورية التي يجب أن تُعطى لكي تؤكد وجود الحقيقة أو صدق القضية، وهذا ما يفعله فكرنا عندما يتساءل : لماذا يكون ما يكون على هذا النحو بالضبط ؟ وليس على نحو آخر؟ حيث لا شيء موجود دون الـ "لماذا" ؟ أي بدون سبب.

هكذا نجد أنفسنا فجأة أمام صيغتين لمبدأ العلة، الاولى تقول: لا شيء موجود بدون علة، بينما تقول الثانية: لا شيء موجود بدون لماذا، وتكثر الأسئلة التي تطرح نفسها هنا وتدفعنا الى ان نفكر بها.

وهنا يبدو المثال الذي يورده هايدغر مناسباً وهو: "الوردة تتفتح بدون لماذا، انها تتفتح لأنها تتفتح" أي انها لا تفكر بذلك لا من أجل نفسها ولا من أجل من يراها أو يشمها.

فما حصل قد حصل بدون الـ "لماذا" في مثال الوردة أو في رموز الصوفية وكأن مبدأ العلة هنا لا سلطان له البتة، بل ان هذه الأمثلة أو الصياغة المختلفة لمبدأ العلة تنقض المبدأ ذاته دون مبالاة، هذا ما يبدو لنا، ولكن الواقع يشير الى أن لدى علم النبات مثلاً، سلسلة من العلل التي تحكم عملية نمو النبات تدحض القول : ليس للوردة لماذا، وتؤكد أنه لا شيء يصير ولاشيء ينمو بدون الـ "لماذا" أي بدون السبب والقول ان الوردة تتفتح لأنها تتفتح يؤكد أن الـ "لأن" هذه تشير الى ربط المعلول بالعلة دون شك، وإذن فهي ليست بدون "لأن" التي تكافئ الـ "لماذا" وإن كان هناك اختلاف بينهما، لأن الـ"لماذا" تسأل عن السبب/العلة والـ "لأن" تجيب وتعيّن السبب/العلة. حيث يظل المبدأ (أي العلة) بما في ذلك العلل التي تجعل وجودنا كبشر مرتبطاً بالقدر الذي يأتي أصلاً من وجود العلة القصوى وربما كان هذا مصدر القول: ان العلل سحيقة الغور كالبئر الذي لا قرار له أو كالهاوية وما يحصل بالنسبة لنا كبشر مغاير تماماً لما يحصل للوردة، لأن الانسان يختلف عن الوردة بأنه يراقب ويتابع ولو بصورة سريعة، يتفرس بالأشياء ويدقق، يتبصر، يهتم بالعالم، فبقدر تبصرنا بأنفسنا، نظل بشراً من حيث كينونتنا، بينما الوردة - كما يرى لايبنتز- لا تحتاج لكي تتفتح ان تكون مزودة بعلل التفتح، كما ان الوردة - لا تحتاج في وجودها الى التزود بعلة الوجود، ولا بد من تحديد الفوارق بيننا وبين الوردة من حيث لوازم الوجود، الوردة لا تكون بدون علة وان كان ما يربط وجودها بمبدأ العلة مبهماً، وإذا كانت الوردة توجد بدون لماذا فإنها ليست بدون علة، والـ "لماذا" والـ"لأن" لا تدلان على الشيء نفسه.

ثمة أمثلة كثيرة تضافرت لوضع مبدأ العلة في ذلك الفضاء الرحب الذي أحاط به فكر لايبنتز بخطوطه العامة التي تحولت الى صيغتين مختصرتين متداولتين هما :

– "لا شيء بدون علة" و "لا شيء بدون لماذا"، مع الاعتراف بعدم إمكانية انطباقه على جميع الحالات، فبعكس القول : "لا شيء بدون الـ "لماذا" " وجدنا القول: ان الوردة تتفتح لأنها تتفتح، وان الـ "بدون لماذا" تقول: ان

الوردة هي دون علة، بينما الـ"لأن" تقول ان للوردة علة، أي أننا في النتيجة نجد أشياء "مشروطة بعلة وغير مشروطة بعلة" في آن معاً.

وعلى كل حال فإن الاختلاف واضح بين دلالة الـ"لماذا" ودلالة الـ"لأن" وهما تشيران الى اننا نستخدم الـ"لماذا" للبحث عن العلة، بينما نستخدم الـ "لأن" للإجابة عنها أو لتقديمها، وهكذا تمثل الـ"لأن" ما يربطنا بالعلة، فيما تبعدنا الـ"لماذا" عنها.

بل ثمة ما يبدو عكس ذلك، حين نطلب بالماذا الى العلة أن تعطينا الاجابة، أن تعطينا ذاتها في حين نسرح بخيالنا نحو أصل الـ"لأن" الأصل الذي يترك للشيء أن يكون كما يكون وحين نمعن النظر جيداً نرى أن البلا علة يساوي البلا علاقة بالعلة، وهنا نسأل: هل ما أسميناه علاقة، يكون معقداً الى هذا الحد؟ ويجيبنا مارتن هايدغر :

"هذا أكيد"... "فإن ما هو حاسم دائماً في العلاقة إنما [هو] الحقل الذي تتحرك ضمنه.

فمن يعيش خارج بلده مثلاً، يحرم من علاقة السكن بهذا البلد، أي أن العلاقة: (الاقامة في البلد/ الوطن) تنقصه. الا ان غياب العلاقة هو نفسه شيء حميم ولا ينفك عن العلاقة وهو الحنين الى الوطن، وهكذا يمكن للعلاقة ان تستمر من خلال أوعبر غيابها"[19]، ولكن ما الذي تنفيه الـ "بلا" (مقارنة بـ الـ"لأن")، وهي ليست مجرد علاقة بالعلة؟ طالما أن الوردة تستمر في الوجود، دون أن تكون لها مع العلة التي نعرفها أية علاقة.

وكنتيجة، نستطيع القول : ان العلاقات التي تقيمها العلة، مع جميع الموجودات الحية هي علاقات عادية وشائعة، وتدخل المادة الجامدة – وفقاً لمذهب لايبنتز– ضمن الموجودات الحية التي تتمتع بالتصور فكل موجود – برأيه– هو موجود حي يتصور ويفعل[*]، وان كان الانسان هو الوحيد بين جميع الموجودات أو الكائنات الحية الذي يمتلك تصوراً للعلة يجعلها ماثلة أمامه، وهو الذي يعيش علاقة تصورية بالعقل كعلة، فإن الانسان وحده يعيش وفقاً لعلل ولأسباب يستطيع تصورها، فيما تعيش الموجودات الاخرى لعلل ولأسباب ما أيضاً، ولكنها لا تعيش وفقاً لهذه العلل، ويمكننا أن نعكس القضية فنقول كنتيجة: ان الانسان يعلل الامور بسبب ارتباطه بالعقل كعلة "عبر علاقة تصورية".

ان هدف الـ"لأن" هو الدلالة على شيء اسمه علة يجب تفسيره ولكن هذه الكلمات "تبدو وكأنها لا تحكي شيئاً، فالوردة تتفتح لأنها تتفتح وهذه هي كل الحكاية أي أن كل ما يجب ان يقال قد قيل، بطريقة ما و ربما بدون كلام ، بطريقة الصمت" (أوما لا يحكى).

هكذا يمكن القول : ان الـ "لماذا" مجرد خواء أو فراغ حتى بعد المقارنة بين صيغتي مبدأ العلة، لا شيء بدون (بلا) علة، ولا شيء بدون (بلا) لماذا، وقد أدركنا من خلال هذه المقارنة أن العلة التي لا تظهر إلا لِماماً تجرنا الى الحيرة والاحباط فالعلة لا تحافظ على حقيقتها كعلة بمعزل عن الـ "لماذا" والـ "لأن" وبمعزل عنا نحن بصفتنا موجودات عاقلة أدركت مدى القوة التي يفرضها المبدأ.

واللافت في العصر الحديث، سِمَتَه النووية وايقاعه الخاص الذي اكتسبه من عظمة مبدأ العلة الذي يوضح الفكر التصوري لفلاسفة العصر الحديث[20].

---

[19] **هايدغر، مبدأ العلة، مرجع سابق، ص48**

*** لا وجود ـ عند لايبنتز، لما نسميه نحن مادة ميتة.**

[20] **اونيس رولان، فلسفة الكوانتم، تر، أحمد باشا، المجلس الوطني للثقافة، 2008، ص49**

أي أن تصور العلة، كتصور، يلعب دوراً موجِهاً في تقديم الحجج والبراهين ويساعد على تفريع القضايا وبرهنتها، وهو بصفته التوجيهية هذه يكتسب مكانة الشيء الأصيل (الذي لا يتفرع عن غيره)، كما يجب أن لا ننسى: إن تحليل مبدأ العلة " لا يبدو ممكناً إلا بوصفه حواراً مع التراث وفي التراث".

منذ وقف الغزالي في مواجهة الفلاسفة وبخاصة في مواجهة الفارابي وابن سينا لينفي وجود أية فاعلية في الكون إلا فاعلية العقل المطلق أو الله، أما "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا... ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر... وهلم جرا الى كل المشاهدات من المقترنات فإن اقترانها من تقدير الله[21].

وكما ينفي الغزالي أية فاعلية إلا فاعلية الله، فإن باركلي ينكر موضوعية العلاقة السببية وينفي أن يكون القانون العلمي تعبيراً عن العلاقات الضرورية بين الظواهر[22].

ويظل من الضروري السعي لمعرفة ما يحكيه المبدأ دون أن ينطق به، في ظل ما يبصرنا به التراث في تعاملنا مع مبدأ العلة لنعرف ما إذا كان يحقق شيئاً مما يوحي به كمبدأ، لا يقبل التفرع ولا التحول الى شيء آخر ولا يقول شيئاً مباشراً، وإنما يذهب بنا الى المنطقة الخطرة التي يصاب بها فكرنا بالارتباك والتأزم والتراجع ليصبح ما اعتبرناه خطوة باتجاه الأمام تقدماً نحو الضلال أو نحو الهاوية، ولعل مقالة مارتن هايدغر حول موجودية العلة، المهداة الى هوسرل عام 1929 التي يتحدث عنها في كتابه "مبدأ العلة" خير معبر عن هذه الحالة المربكة، التي تقول الفقرة الاولى من القسم الأول منها : "ان ما يشكل موجودية العلة، لا يتحدد في المبدأ، إذ تعتبر هذه الموجودية، قائمة سلفاً وبمثابة تصور بديهي"[23].

ومع أن هذه العبارة صادقة، فهي خادعة ومضللة أيضاً، في عملية البحث عن موجودية العلة، أما كيف؟ كيف نخدع؟ يقول هايدغر: "ان هذا ممكن ببساطة، وها هنا خدعة مركبة مزدوجة غالباً ما تنال من الفكر" (ص52). لأن الفكر لا يستطيع رؤية شيء في ذلك الحقل الواسع، الذي ينداح أمامه، والمقصود هنا بالرؤية، الإدراك واختراق الشيء بالنظر وصولاً الى ما يحدد هوية الشيء، وإن كنا لا نستطيع تثبيته تحت أنظارنا إلا إذا عدنا الى أصله، وباختصار يمكن القول: إذا لم يستطع الفكر التقاط كنه الشيء أو جوهر الشيء، فإنه "يعجز عن رؤية ما يوجد أمامه" أو ما يراه رؤية سيئة حين "ينجذب الى نوع من العمق المزيف"[24].

وهايدغر، يطبق هذه الملاحظات، عن سوء الرؤية، على مقالته حول "موجودية العلة" كنموذج عملي، موضحاً أن مبدأ "لا شيء موجود بدون علة" يحكي عن شيء ما موجود دون أن يتعرض لدلالة لفظة الـ "العلة" فمبدأ العلة اذن، هو بيان حول الموجود، لا يوضح موجودية العلة.

إننا ننظر الى الفكر، بصفته نوعاً من السمع، أو البصر، على سبيل المجاز أو الاستعارة، وإن لم يكن ثمة ما يمكن ان نسميه فهماً سمعياً أو بصرياً، فنحن الذين نسمع، وليس آذاننا، أو لنقُل إننا نسمع بكليتنا، بوساطة آذاننا.

---

[21] **انظر، الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق: سليمان دنيا، ط5، دار المعارف ص239. (نقلاً عن: فكرة الألوهية في فلسفة باركلي. مرجع سابق، ص125).**

[22] **خليفة، فريال حسن، فكرة الالوهية في فلسفة باركلي، مطبعة الجندي، 1997، ص136**

[23] **انظر: مبدأ العلة. مرجع سابق، ص 49، 51، 52**

[24] **نفسه، ص53**

ولهذا فإننا نعدّ الاذُن شرطاً، أو علة للسمع، ولكنها بالتأكيد ليست شرطاً كافياً (علة كافية)، لأنها لا تقدِم ما يُدرَك، أو ما هو قابل للإدراك...

والتشديد على كلمتي "يوجد" و"علة"، في صيغة المبدأ أو العلة: "لا يوجد شيء بدون علة"، يتيح لنا أن نلمح شيئاً ما، موجوداً، يدل على موجودية، بمعنى ان شيئاً ما موجوداً، في موجودية الموجود، يؤكد أن مبدأ العلة، لم يكن مجرد كلام، حول ما هو موجود، لأنه يحكي عن موجودية، من طبيعة العلة، بل هو أصل العلة، مما يمنع القول بوجود علة للوجود، لأن الموجود، هو بذاته علة، "تؤصل وتؤسس" فما يحكيه المبدأ يظل أقلّ من الكلام الذي يحكي عنه المبدأ، الذي هو كلام سري، باطني، حول الموجود.

ولكن، هل نكتفي بالإصغاء، الى ما يقوله لنا مبدأ العلة بصمت عن سرّ موجوديته؟، وإذا كنا جميعاً نمتلك امكانية سماع الاصوات الخفية فإننا لا نمتلك حسن الاستخدام، لأن السمع هنا لا يتعلق بالاذن وحدها، وإنما بانتمائنا الثقافي قبل كل شيء.

إن الصيغة الشائعة لمبدأ العلة: لا شيء موجود بدون علة، هي سبب بقائه مبتذلاً مغموراً، في زحمة التصورات الانسانية، الى أن جاء لايبنتز، وانتشله من الحِطة والابتذال، ورفعه الى مقام المبدأ الأسمى، وأعطاه صيغة دقيقة تقول: لا يوجد شيء بدون علة كافية، تُعطى أو تُقدم، أو نقول: لكل ما هو موجود علة كافية مخصوصة لا بد ان تُعطى أو تُقدم.

ولكن ثمة صياغة اخرى تقول: لاشيء يوجد بدون علة، عوضاً عن القول : لا شيء موجود بدون علة فينتقل التركيز من لا شيء يوجد الى لا شيء موجود، حيث يشير فعل يوجد، الى الموجودية، ويحصل التناسق بين الوجود والعلة.

كما يشير التركيز، الى أن العلة شيء متضمن في الوجود، أو أن الوجود يتضمن العلة، أو أنه يكتسب علته.

الوجود والعلة/الاصل، متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فالأصل يكتسب ماهيته أو تجوهره عبر اتحاده بالوجود، بوصفه وجوداً، وبالعكس، وهنا يصح القول: ان الوجود يبسط سلطانه، عبر ماهية الأصل، وإذا كان الوجود والعلة شيئاً واحداً، فلا يعني ان احدهما يمكن ان يحل محل الآخر، أواستبداله بالآخر، لأن الوجود في جوهره أصل/قاعدة، ولا يمكن ان يكون لأصل الوجود، أصل، أو علة تؤصله، وحيث يقع الموجود، تحت سلطة مبدأ العلة، فإن الوجود، لا يمكن ان يقع تحت سلطة مبدأ العلة.

ان فعل يوجد، يشير إلى الموجودية وطريقة تلفظه نفسها تبين طبيعة التناسق بين الوجود والعلة.

يدعونا هايدغر، الى ان نتلمس بأنفسنا، معنى صيغتي الوجود والعلة، وذلك بتحليل مبدأ العلة، كمبدأ يتعلق بالوجود، وان نسير وراءه الى حيث يأخذنا، وكنا قد عبرنا عن مبدأ العلة هكذا: لا (يوجد) شيء بدون علة والباقي واضح... وقرأنا المبدأ على أساس الصيغة المعروفة للجميع وفهمناه بمعنى ان لكل شيء علة، والآن وبعد أن علمنا أن المبدأ يمكن ان يُقرأ قراءة اخرى، قراءة جديدة، لا بد أن نسأل : لماذا لم تكن هذه القراءة الثانية، الجديدة منذ البداية؟ وان يقتصر الأمر عليها؟ ما الذي كان يمنع المبدأ، أن يظهر بصفته مبدأ يرتبط بالوجود؟ والجواب: إن ما قلناه وما فعلناه حتى الآن، لم يكن نافلاً ودون فائدة، اذ كيف كان لنا – بدونها– ان نقدم مباشرة ومنذ البداية هذه القراءة الثانية؟ لا سيما وانها لا يمكن استخراجها من القراءة الاولى، لأنها بمثابة قفزة مفاجئة، تقود الفكر إلى فضاء آخر، دون تواصل مع السابق، وهي نسق جديد آخر من الكلام، لا يشكل صلة وصل بين منطقة مبدأ العلة ومنطقة مبدأ الوجود، كان

يدور حول مبدأ العلة، دون أن نصل الى تلك القفزة، فقد كان الدوران بمثابة استعداد للقفز، ولكن نقاطاً كثيرة، ظهرت بينها صلات داخلية فريدة، تنم عن شيء قادر على التوحد.

تنطلق القفزة، من مبدأ العلة، الى مبدأ الوجود، او المبدأ المرتبط بالوجود، وهي القفزة التي قيل: انها معلقة في الهواء، قفزة تؤكد ان مبدأ العلة ليس مجرد مبدأ وانما هو قفزة أو وثبة باتجاه جوهر الوجود، ولم يعد مبدأ العلة قضية تتعلق بالوجود بعد أن أصبح قفزة في الوجود باعتباره وجوداً، باعتباره أصلاً أو قاعدة.

الاستنتاجات والتوصيات:

وبناء على ما تقدم نستنتج مجموعة من النقاط:

– أما بالنسبة للنقطة الأولى فتتعلق بفترة الوجود الخفي، أو فترة رقاد مبدأ العلة، الذي كان يظهر بالصيغة الشائعة، عبر الأصداء التي يلتقطها الفكر، والتي استغرقت وفقاً لحساب هايدغر – ثلاثة آلاف وثلاثمئة عام لكي يظهر مبدأ العلة كمبدأ، ويبدو أن هذه الفترة الزمنية المديدة، قد طرحت السؤال المتوقع : "أين رقد مبدأ العلة طوال هذا الدهر؟". وظل السؤال دون جواب وما حصل هو تركيز الانظار في الاتجاه الذي قد يقدم الجواب عنه، فإن الاستمرار بالرقاد منوط بما يجري الحديث عنه وان كان ما يحكى عنه (عن الوجود) يفيد ان الوجود ما يزال نائماً.

ولكن هذا لا يعني أبداً، أن الوجود لم يكن موجوداً طوال فترة الرقاد، فتاريخ الفلسفة يؤكد وجوده، كلما كان السؤال يطرح حول الموجود بصفته موجوداً. فالمقصود هو ان الوجود كوجود لم يستفق بعد لينظر إلينا من عليائه، وطالما أن ماهيته ما تزال محجوبة، فإنها تمنعنا من امكانية التكهن، بما ستقوله لنا هذه الماهية، اللهم الا عندما نرى مبدأ العلة، بمثابة قفزة في الوجود، ولا يعني هذا أن الوجود يظل خفياً بدليل التجربة الحياتية اليومية المعتادة "فعندما ينبت العشب الأخضر في الحقل عند بداية الربيع، أي عندما تظهر الحقول خضراء، فإن قدرة الطبيعة وحيويتها تتجلى في هذا الظهور"[25]. وإن كان جوهر الطبيعة كوجود، يظل خافياً علينا، حتى عندما نتنزه في الحقول الخضراء لأنها لا تظهر منتشرة أمامنا كوجود، وهكذا بالنسبة لمبدأ العلة الذي يقف عن الانتشار على الرغم مما قضى بانحجابه دهراً، وبالنسبة للنقطة الثانية، فقد اشير إليها منذ أن أعطى لايبنتز تلك الدقة لمبدأ العلة ورفعه الى مرتبة المبدأ الأعلى وأنهى زمن رقاده الذي سببه انتشار الوجود انتشاراً يغطيه كوجود، لتكون نهاية الرقاد بمثابة صحوة أو حضور للوجود، يثبت نفسه كمبدأ أعلى، يمارس سلطانه على جميع تصورات الفكر، في مختلف المجالات، بحيث يصبح خضوعها، معياراً للصدق، غير أن السطوة، أو ممارسة السلطان، تذهب بعيداً بالمبدأ وتغيبه، بصفته يمثل قفزة، وعندما تصبح سطوة المبدأ، أقوى مما كانت عليه في مرحلة الرقاد، تظهر الحجب بصورتها الأكثف.

المهم ان فكر لايبنتز قد أيقظ مبدأ العلة من الرقاد وجعله مشهوراً وإن ظل من حيث علاقته بالوجود، أشدّ خفاءً. بسبب عدم القدرة على البت بأولوية أحد من الطرفين (الوجود أم الماهية).

وأما بالنسبة للنقطة الثالثة، فكانت تفترض توضيح القول بالعلة توضيحاً يذهب الى أبعد من تصورها كقاعدة مجردة تنحصر في الإطار الفكري.

لقد أخذت ملامح الكائن بالظهور منذ لايبنتز بصفته كائناً متعلقاً بـ "الذات، مرتهناً لها أو لنقُل: طالما ان فكرة الكائن هي شيء مفكَّر فيه، فهو مرتبط بالانسان، دون أن يعني هذا أنه من خيال الذات أو من أوهامها أو وضعها أو إنشائها مما يقودنا الى المثالية الذاتية فالأمر لا يتعدى أمر تجلي كينونة الموضوع عبر صلتها بالذات، لأن الموضوع

[25] **هايدغر، مبدأ العلة، ص61**

لا قيمة له ما لم يجرِ تمثله من قبل ذات ما، فإن الصلة بين الذات والموضوع هي تمثُّل مزدوج، فهو من جهة "تمثل الكائن لذاته او ما نسميه وعي الذات، وهو من جهة ثانية تمثُّل الكائن للموضوع أو ما نطلق عليه اسم وعي السِوى[26]، من هنا جاء زعم هايدغر أنه: "بدءاً من لايبنتز عرفت ميتافيزيقا الذاتية بدايتها الحاسمة" [27].

ملخص المونادولوجيا

(قواعد الفلسفة)

الأول : 1- 30 صفاتها (السلبية والإيجابية) ،ومراتب تسلسلها (في الإنسان والحيوان والنبات)

الثاني : 31- 48 الله وبراهين وجوده

الثالث : 49- 90 اعتبارها مجتمعة بسبب الانسجام المسبق

1- الموناد جوهر بسيط بدون أجزاء، يدخل في المركبات .

2- المركبات كومة أو مجموعة بسائط .

3- المونادات هي الذرات الحقيقية أو عناصر الاشياء، لا امتداد ولا شكل ولا انقسام

4- لا تنحل و لا تتلف

5- لا بداية لها ولا تتكون بالتركيب بصورة طبيعية

6- لا تبدأ ولا تنتهي إلا دفعة واحدة (تخلق وتفنى دفعة)

7- ليس للموناد نوافذ لذلك لا شي يدخل إليه أو يخرج (الأعراض لا تنفصل ولا تتنزه خارجه)

8- للمونادات بعض الصفات و إلا لما كانت كائنات و لما تميزت عن بعضها وبالتالي تعذر تمييز التغير في الأشياء. ما يوجد في المركب ناتج من البسائط (المونادات التي لا تتباين كماً)

9- كل موناد مختلف عن الآخر وليس في الطبيعة كائنان متشابهان تمام التشابه

10- الموناد متغير (بمعنى استمرار الماضي في الحاضر والهوية داخل النوع والثبات ضمن الصيرورة)

11- تغيرات الموناد تتأتى عن مبدأ داخلي طالما أنه لا سبيل لعلة خارجية مؤثرة فيه

12- تفصيلات التغير هي التي تعيّن تنويع الجواهر البسيطة واختلافها

13- التفصيل يضم كثرة في الوحدة أو في البسيط (أي انفعالات وعلاقات لا أجزاء)

14- الإدراك الضعيف هو الحالة التي تشمل كثرة في الوحدة أو في الجوهر البسيط

15- الاشتهاء هو فعل المبدأ الداخلي الذي يسبب التغير أو الانتقال من إدراك الى آخر

16- نختبر الكثرة في الموناد حين نجد أقل فكرة ندركها فيها تباين في موضوعها

---

[26] **هايدغر، نيتشه، مجلد2، ص360. (نقلاً عن: نقد الحداثة في فكر هايدغر، مرجع سابق، ص395)**

[27] **الشيخ محمد، نقد الحداثة في فكر هايدغر، ص 394-395**

المراجع والمصادر:

1 . أبو ريان، محمد علي. تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة الحديثة، الجزء الرابع. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1996.

2 . أبو السعود، عطيات. الحصاد الفلسفي للقرن العشرين. الاسكندرية: منشأة المعارف، 2002.

3 . أومنيس، رولان. فلسفة الكوانتم. تر: أحمد باشا، يمنى الخولي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة، 2008.

4 . خليفة، فريال حسن. فكرة الألوهية في فلسفة باركلي. القاهرة: مكتبة الجندي، 1997.

5 . رسل، برتراند. تاريخ الفلسفة الغربية: الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة. تر: محمد فتحي الشنيطي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.

6 . سليمان، جمال محمد أحمد. مارتن هيدجر الوجود والموجود. بيروت: دار التنوير، 2009.

7 . شاخت، ريتشارد. رواد الفلسفة الحديثة. تر: أحمد حمدي محمود. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

8 . الشيخ، محمد. نقد الحداثة في فكر هايدغر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2008.

9 . طعمه، جورج. فلسفة لايبنتز مع تعريب المونادولوجيا ونصوص أخرى. ط2. دمشق: مكتبة أطلس، 1965.

10. لالاند، أندريه. موسوعة لالاند الفلسفية. 3مجلدات. ط2. بيروت: منشورات عويدات، 2001.

11. ليبنتز، ج. ف.، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني. تر: أحمد فؤاد كامل. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1983.

12. محمد، علي عبد المعطي. تيارات فلسفية حديثة. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1984.

13. هامبشر، ستيوارت. عصر العقل. تر: ناظم الطحان. ط2. اللاذقية: دار الحوار، 1986.

14. هيدغر، مارتن. مبدأ العلة. تر: نظير جاهل. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، 1991.

15. وهبه، مراد. المعجم الفلسفي. القاهرة: دار قباء الحديثة، 2007.